وداع ووداع

للأستاذ محمد مصطفى حمام

نظر صاحبي إلى الساعة المثبتة على معصمه ونهض مسرعا وهو يقول : لم يبق على قيام القطار إلا نصف ساعة ، ومد يده إلى الجلساء مودعا ، قلنا إلى أين ؟

قال إلى الاسكندرية ، لأشيع الباشا فلانا إلى مثواه الأخير ، وأحضر المأتم ، وأواسي أبناءه وذويه ثم أعود من سفرى غدا .

ولم نجد فى عيني هذا المزمع سفرا وتشييعا أثرا للدموع ، ولا كان يبدو عليه مظهر من مظاهر الحزن بل لقد كان طول الجلسة أكثرنا ضحكا وأوفرنا حظا من المرح .

وأرجأ أكثرنا التعليق على " مشروعه " هذا إلى ما بعد انصرافه ، لأن للغيبة عندهم لذة لا تعادلها لذة ، أو هى داء لم ينج منه أحد ، لكنه قبل أن يفارقنا فتح لنا مجال التعليق اذ عرض علينا أن نصحبه أو يصحبه أحدنا ليكون له فى سفره زميل .

قلنا : لم تكن لنا بالفقيد صلة ، ولا نعرف أحدا من أبنائه ولا ذويه ، ولسنا عليه بمحزونين .

قال ولا أنا !

يا لها من عجيبة !

. . . ففيم يا هذا تكلف نفسك عناء السفر ونفقاته ؟

قال إنكم بلهاء . إن فلانا ابن الفقيد سيكون رئيسنا بعد أيام ، وقد أخبرنى بهذا مصدر مطلع فى الديوان ! أليس لكم شيء من بعد النظر ؟ ألا تحسبون للمستقبل القريب حسابا ؟

* * *

لقد رتب هذا الفتى أمره ، وأحكم تدبيره ، وقال لنفسه : إن ذهابى إلى هذا العظيم يخلق لى فى الغد القريب فرصة ذهبية . انه سيعرف لى هذا الجميل ، فاذا ما استقر فى منصبه ورآنى بين مرءوسيه فلا شك أنى سأظفر عنده بالحظوة وأتبوأ من نفسه المكان الرفيع .

وأمثال هذا الطفيلى كثيرون ، لا يعنون من الصحف إلا بباب الوفيات ليعزوا ، وباب الأفراح ليهنئوا ، ولا يفوتهم تشكيل أو تعديل وزارى ، بل هم اليقظون المتيقظون لتهنئة الجميع سواء أكانت لهم معرفة سابقة بهم أم كانوا عليهم غرباء .

ومنهم من سأل عن الوزير أو الرئيس أو الكبير ، أين يقضي وقت فراغه ؟ فان كان معالمه أو سعادته عضوا في جمعية أو ناد أو حزب سياسي قدم نفسه عضوا ورب اقترض مبلغ الاشتراك لأنه ليس في جيبه ! وما ذلك الا ليخلق فرصة الاختلاط بذلك العظيم ، ليحجز لنفسه حصة من وصاده ، ويحشر عنده في زمرة المقربين .

أولئك حريصون على زيارة كل كبير يمرض ، وأكثرهم لا يحفل بالمرضى أو المنكوبين من أهله وعشيرته الأقربين .

ومنهم كتاب وشعراء ، تتسابقهم قرائحهم على تدبيج المقالات وصوغ القصائد تهنئة وتعزية وتقريظا لمن يعرفون ومن لا يعرفون ، وهم لا يطلبون الخير العاجل ، وانما يربون لخطوة "المحسوبية" تربية منظمة طويلة العمر . ويصبرون لها ويواظبون على واجباتها ، وهم يعلمون أن نمو حظوظهم لدى هذا العظيم يتمشى مع نموه هو ومع تزايد نفوذه على الأيام .

ومما يؤسف له أن بعض عظمائنا تنطلي عليهم هذه الخدعة فاذا ما توفر لهم الجاه والقدرة على النفع والضر ، دفعوا من جاههم ومن أمانة مناصبهم ثمن تلك المجاملات القديمة وانهم ليدفعونه من حقوق الناس ، تعيينات وترقيات وقروضا من مال الدولة وسخاء في تسهيل المصالح على اختلاف أنواعها وعلى اختلاف طلابها .

فالأصل في "المحسوبية" انها طفيلي ثقيل ، لكن بساطة بعض كبار رجالنا تقبل هذا الطفيلي وتظل تسمعه وتشجعه حتى ينقلب إلى صداقة لها حقوق ولها واجبات .

واذا كانت "المحسوبية" أو كان هذا التطفل ، داء من الداءات التي تستفحل وتقوى ، فمن حقها أن تعالج فقط . بل يجب أن تتخذ العدة للوقاية منها قبل استفحالها . وطريقة ذلك أن يصون العظماء مجالسهم وأفراحهم ومآتمهم عن كل متطفل لا يعنيه من أمر الأسرة شيء ، ولا تربطه بها قرابة ولا صداقة .

يوم تتوفر لدى رجالنا هذه الشجاعة يعرف كل انسان الحد الذي ينبغي له الوقوف عنده ، ولا يكون لأحد حق على الدولة كسبه ببطاقة تهنئة أو كلمة تعزية أو صلة مغتصبة لها بطريق التطفل والفضول ما

محمد مصطفى حمام